

ظاهرة اجتماع الساكنين بين إثبات القراء ورد النحاة

(قراءة نافع نموذجاً)

أ. رابع دفرور

جامعة أدرار
الجزائر

إن المعركة الدائرة بين القراء النحاة معركة قديمة قدم القواعد النحوية و المدونات اللغوية ، فما أن بدأ النحاة في تعقيد القواعد اللغوية ووضع أصولها حتى بدأ الخلاف في الاعتبار بالشاهد القرآني الذي قبل من حيث العموم لأن القرآن عربي نزل على نبي عربي وقام بتلاوته ونقله قوم عرب ، وأما من حيث التفصيل فإن ثمة من أوجه القراءات ما لقي اعتراضاً ورداً من النحاة خصوصاً البصريين منهم لما قام عليه مذهبهم من اعتماد القياس و التقليل من الاعتبار بالسمع . و من ثمة أخذ أصحاب الدراسات القرآنية في تبرير و توجيه ما خيل للنحاة أنه شذوذ عربي وخروج عن الصحيح المقبول لغة فوجهوا القراءات المردودة و خرجوها على مخارج تستقيم مع القواعد و الأصول و من هؤلاء مثلاً ابن جني الذي ألف كتابه : المحتسب في توجيه القراءات الشاذة و ابن خالويه في كتابه الحجة و هو في توجيه القراءات السبع و غيرهما .

و من بين المسائل التي أنكرت من طرف النحاة على القراء مسألة الجمع بين الساكنين لدي مواضع لم يميزها النحاة و لم يجدوا لها مبرراً و لا موجهاً. وسوف نحاول إلقاء بعض الضوء على هذه المسألة من خلال ما جاء في قراءة نافع من مواضع جمع فيها بين الساكنين واعتراضات النحاة عليها وكيفية توجه اعتراضاتهم.

مسألة اجتماع الساكنين عند النحاة :

إن الأصل في اللغة العرب ألا يجتمع ساكنان متواليان سواء أكان ذلك في كلمة أو في كلمتين إلا في مواضع قليلة اغتفر فيها ذلك لأسباب صرفية، وهذه

الموضع ظلت محل خلاف بين النحاة ، وكان كل فريق منهم يضع لذلك حدا لم يضعه الثاني ، قال أبو حيان الأندلسي : (إن الكوفيين أجازوا الجمع بين السلكين على غير الحد الذي أجازها البصريون) (1). و كان الحد الأدنى الذي حصل فيه الاتحاق بينهم هو جواز ذلك في المواضع الآتية (2).

أ - إذا كان الساكن الأول حرف مد ولين أو ياء تصغير و الثاني شديدا نحو : دابة وخويصة (تصغير خاصة).

ب - إذا كان ذلك في الكلمات المسرودة نحو: قاف وميم و نون حريفاً مجرى الموقوف عليه .

ج - الكلمات الموقوف عليها نحو : بكر و ثوب وقال.

ظاهرة اجتماع الساكنين في قراءة نافع :

إن الملاحظ لقراءة نافع و المتأمل فيها يجدها قد اشتملت على جملة من

مواضع اجتماع الساكنين على غير هذا الحد الذي ذكرنا و تمثل ذلك فيما يلي:

1 - في حال اجتماع همزتين مفتوحتين بعد الثانية ساكن حيث تبدل

الهمزة الثانية ألفا و يجتمع ساكنان وذلك نحو : أنت و (جاء امرنا) و أنذرتم .

2 - في كلمة (نعما) الواقعة في قوله تعالى : (إن تبدوا الصدقات

قعما هي و إن تخفوها وتوتوها الفقراء فهو خير لكم) (3) ، و في قوله تعالى (

إن الله نعماء يعظكم به) (4) ، حيث قرأ نافع من رواية قالون بإسكان العين و

تشديد الميم (5) .

3 - في كلمة (تعدوا) الواقعة في قوله تعالى : (و قلنا لهم لا تعدوا

في السبت) (6)، حيث قرأ نافع من رواية قالون بإسكان العين وتشديد الدال (7).

4 - في كلمة (محيي) الواقعة في قوله تعالى: (قل إن صلاتي و نسكي و محيي و مماتي لله رب العالمين) (8) ، حيث قراء نافع بإسكان الياء من رواية ورش (9).

5 - في كلمة (يهدي) الواقعة في قوله تعالى:(أمن لا يهدي إلا أن يهدي)(10)، حيث قرأ نافع من رواية قالون بإسكان الهاء وتشديد الدال (11).

6 - في كلمة (يخلصون) الواقعة في قوله تعالى: (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) (12) ، حيث قرأ نافع من رواية قانون بإسكان الخاء وتشديد الصاد (13) .

اعتراضات و توجيهات:

لقد اعترض جملة من النحاة - خاصة البصريين منهم - على قراءة نافع في مسألة الجمع بين الساكنين، فكان منكم المنكر لها أصلاً، و كان منهم المتهم نقلتها بالوهم و الخطأ، و كان أخفهم اعتراضاً من حاول أن يجد لها مخرجاً ولو كان بعيداً. فهذا الزمخشري يعتبر إبدال ثانية الهمزتين المفتوحتين الساكن ما بعد لحننا في لغة العرب فقال: (فان قلت: ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفاً قلت: هو لاحن خارج عن كلام العرب خروجين أحدهما : الإقدام على جمع الساكنين على غير حده ...)(14) .

وإنكار الزمخشري مردود وهو في ذلك محجوج حيث جاز اجتماع الساكنين إذا فصل بينهما بمد مشبع، و الإمام نافع لا يبدل إلا بشرط إشباع المد بين الساكنين فيما وقع من ذلك .

وقال سيبويه في نحو الكلمات الأخرى: (... و إذا كان قبل الحرف المتحرك الذي بعده حرف مثله سواء حرف ساكن لم يجوز أن يسكن، ولكنك إن شئت أخفيت و كان بزنته متحركاً)(15). ونحى هذا النحو جمهور البصريين

حيث قال ابن يعيش لدى قوله تعالى : (الرعب بما) تعليقا على قراءة أبي البصري : (و حكى عنه (الرعب بما) بالادغام و هو غير جائز عندنا للجميع بين الساكنين على غير شرطه ... و أجازة الكوفيون) (16) .

وقال أبو علي الفارسي : (و من قرأ فنعمنا بسكون العين لم يكن قوله مستقيما عند النحويين لأنه جمع بين ساكنين الأول منهما ليس بحرف مد ولين... و لعل أبا عمرو أخفى الحركة و اختلسها... فظن السامع الإخفاء إسكانا للطف ذلك في السمع و خفائه) (17) .

ويجاب عن هذا أن هذا المسموع لم يكن عن أبي عمرو فحسب بل هو مروى عن نافع أيضا، وهو ما أقره القراء في زمن نافع و لم ينكروه عليه . و قال أبو جعفر النحاس : (و أما الذي حكى عن أبي عمرو و نافع من إسكان العين فمحال) (18) .

و قال الزجاج : (... و لا هذه القراءة عند البصريين جائزة البتة، لان فيها الجمع بين ساكنين من غير حرف مد ولين) (19) .

وتوجه قراءة نافع أمام هذه الاعتراضات بأن هذا الذي رده جماعة من النحاة أجازته جماعة أخرى منهم، ومن هؤلاء المحيذين الكوفيون ومنهم القراء (20) و جماعة من نحاة القراء كابن سلام (21)، وكذلك بما ثبت عن بعض العرب من أنهم جمعوا بين ساكنين في نحو هذه الحالة، و من ذلك قولهم: (شهر رمضان) بإدغام الراء (22) .

وإضافة إلى ذلك أن هذه اللغة لغة النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث ورد عنه قوله : (نعمنا بالمال الصالح للرجل الصالح) (23) بإسكان العين . و قال أبو حيان : (وليس العلم محصورا ولا مقصورا على ما نقله البصريون، فلا ينظر إلى قولهم : إن هذا لا يجوز) (24) .

و ما جاء من اجتماع الساكنين في كلمة (محيائي) فقد اعترض عليه أيضا جماعة منهم فقال الزجاج : (وأما (محيائي) فلا بد من فتحها) (25) وقال النحاس: (ولم يجزه أحد من النحويين إلا يونس، وإنما أجازوه لأن قبله ألف... و إنما منع النحويون هذا لأنه جمع بين ساكنين و ليس في الثاني إدغام) (26) و قال الفارسي : (هي شاذة في القياس لأنها جمعت بين ساكنين، و شاذة في الاستعمال) (27) .

و وجهت قراءة نافع أمام هذه الأقوال على أنها أجري فيها الوصل مجرى الوقت و هذا ما ذهب إليه أبو حيان الأندلسي (28) ، و وافقه الخطيب الشريبي .

و الأولى - من هذا - القول بقول نحاة الكوفة لأنه ليس من الضرورة أن يكون ما وضعه البصريون حدا لا محيد عنه وأنه يجب تخريج القراءة وفقه فطالما الأمر خلاف بين النحاة فقول بعضهم ليس حجة إلا عند إجماعهم . وخاصة بعدما بدا جليا أن المعركة ليست بين النحاة والقراء وإنما هي بين النحاة أنفسهم . والحق أن قراءة نافع كانت ذات آثار هامة تتمثل في أنها كانت شاهدة على أقوال بعض النحاة وعلى بعض اللغات العربية قبل ذلك ، غير أننا نرى في أغلب الأحوال أن جماعة من النحاة لا يرضيهم أن يخالفوا قواعدهم التي نصبوها لأنفسهم فنجدهم بين راد للقراءة و منكر لها و بين مؤول تأويلات ومقصر تقديرات بعيدة، لا لشيء إلا لأن القراءة جاءت على خلاف الشواهد الشعرية العربية التي استنبط منها قاعدته النحوية أو الصرفية ، وكان الأولى من ذلك أن يحكم القراءة المتواترة بدل الشاهد العشري الذي غاية أمره أنه ثابت آحادا، ناهيك عن بعض الشواهد التي لا يعرف قائلوها . و الحق أن رأي النحاة في مثل هذا

المسائل فيه شطط وخروج عن المنطق السليم في إثبات القاعدة اللغوية ، و ما كلان من في مترلتهم أن يكون منه ذلك (29) .

الهوامش

- 1- البحر المحيط لأبي حيان : 48-47/1 .
- 2- ضياء السالك إلى أوضح المسالك : 430-429/4 .
- 3- البقرة : 270 .
- 4- النساء : 57 .
- 5- التيسير في القراءات السبع ، ص: 84 .
- 6- النساء : 153 .
- 7- التيسير : 98 .
- 8- الأنعام: 164 .
- 9- لتيسير ص: 108 .
- 10- يونس : 35 .
- 11- التيسير : 122 .
- 12- يس: 48 .
- 13- التيسير ص: 184 .
- 14- الكشف : 154/1 .
- 15- الكتاب : 437/4 .
- 16- شرح المفصل لابن يعيش : 145/10 مج:2 .
- 17- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 381/2 .
- 18- إبراز المعاني من حرز المعاني : 281/2 .
- 19- معاني القرآن وإعراجه للزجاج : 354/1 .
- 20- معاني القرآن للفراء : 18/1 .
- 21- إبراز المعاني : 372/2 .

الأثر-مجلة الآداب واللغات-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة ورقلة-الجزائر-العدد:02-ماي:2003م

- (22) - النشر في القراءات العشر : 236/2 .
- (23) -أخرجه الحاكم وأحمد .
- (24) - أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي ، ص: 399 .
- (25) - معاني القرآن وإعرابه للزجاج : 311/2 .
- (26) - الجامع لأحكام القرآن : 99/7 .
- (27) - البحر المحيط : 262/4 .
- (28) - المصدر نفسه : 262/4 .
- (29) -انظر : دفاع عن القراءات في مواجهة الطبري المفسر ، ص: 15-16 .